

قتالا داميا طيلة الاشهر الخمسة التي سبقت سقوطها، ولم يكن عدد المناضلين فيها يزيد في اي يوم عن الاربعمئة مقاتل، مع ان مدينة صناعية مهمة كحيفا، ومدينة كبرى بمرفئها وموقعها ومواصلاتها كانت تستحق الاولوية من اهتمام القيادة العسكرية، وخاصة ان سكانها كانوا خليطا من العرب واليهود. (٢٣٣)

لم يكن الحصول على السلاح امرا سهلا، ولا وجه للمقارنة بين اسلحة اليهود التي كانت تمتلئ بها سراديب البنايات المرتفعة، وبين اسلحة العرب التي كانت تعاني من نقص في الكمية ومن فساد فيها ومن سوء في التوزيع، فقد وزعت بنادق فرنسية من الحرب العالمية الاولى، كما ان كل شحنة من البنادق لا تتوافر الروايات حول عددها وحول كيفية وصولها. (٢٣٤)

ومن اجل الحصول على السلاح اضطر القادة المسؤولون الى الذهاب بأنفسهم مرارا للاشراف على نقله، وقد استشهد القائد محمد حمد ومساعدته سرور برهم (ابو محمود) عندما هاجم اليهود شاحنتهما المحملة بالسلاح، وهي في طريقها من عكا الى حيفا (٢٣٥)، وتسلم القيادة امين عز الدين.

اقترح رئيس بلدية حيفا شبتاي ليفي جعل المدينة مفتوحة او منطقة حرام لا يطلق فيها رصاص ولا يصاب احد بسوء. ووافق بعض زعماء حيفا- فيما بينهم- لمعرفتهم باستحالة الصمود النهائي العسكري، فالبيوت العربية تقع معظمها في المنخفضات، بينما يسكن اليهود اعالي المدينة ويحيطونها بالمستعمرات، وقد اوفدت اللجنة القومية وفدا لاطلاع الهيئة العربية العليا على الاقتراح خوفا من اتهام زعماء حيفا بالخيانة، وكان الجواب هو الرفض القاطع. (٢٣٦)

اعلنت الحكومة ان جيشها لن يغادر حيفا الا في اول آب (اغسطس) ١٩٤٨، وكلما راجع العرب القيادة البريطانية اجابتهم بأنها تسيطر على الحالة وان المدينة في امان وانها مستعدة لحماية ارواح الفريقين

(٢٣٣) بلغ عدد اليهود في حيفا خمسة وسبعين ألفاً، وهم يتفوقون على العرب بأثني عشر ألفاً.

(٢٣٤) راجع: محمد نمر الخطيب، من أثر النكبة، ص ١٣٣ - ١٤٢.

... روى الشيخ محمد نمر الخطيب من رجال الجمعية الاسلامية واللجنة القومية في يومياته عن ندرة السلاح اثر التقسيم: «لا ازال اذكر الايام الاول يوم ان كان الشباب يتسلحون بالعصي الرفيعة... لقد كان من أعذب أمانهم أن يروا مسدساً أو بندقية...»

«لم يكن لدي إلا مسدس واحد صغير فكان الشباب يحملونه بالدور، هذا من ساعة كذا الى ساعة كذا وهكذا... وكان العيد الأكبر يوم ان اشترينا سبعة مسدسات (غرة ٧) وحينذاك هلّل الشباب وكبروا، وكأنما جاءهم الفتح والنصر» (محمد نمر الخطيب، المصدر نفسه، ص ١٧٤).

ويروي الخطيب كذلك عن سعادتهم باعتراف القائد أبو محمود سرور بأن لديه كمية متواضعة من القنابل اليدوية مخزنة من ثورة ١٩٣٦، ولما اتضح انها تبلغ حوالي المائة قنبلة وأنها لا تزال صالحة للاستعمال أصبحت هذه الكمية المتواضعة هي «رأس مالنا في الجهاد والجلاد وعليها كان المعول في أول الأمر» (المصدر نفسه، ص ١٧٣).

(٢٣٥) محمد نمر الخطيب، من أثر النكبة، ص ١٤٠.

(٢٣٦) المصدر نفسه، ص ١٥٠ - ١٥١.

حتى اول آب (اغسطس)، ثم لم يمض يوم واحد على تصريح الجنرال مكميلان بقوله انه سوف يعود الى بسط سلطة الجيش على المدينة بكاملها حتى دخلت المصفحات اليهودية من الجهة الغربية وسدت المنافذ، فلم يحرك الجيش البريطاني ساكنا. (٢٣٧)

في ٢١ نيسان (ابريل) دعا الميجور جنرال ستوكوول قائد فرقة الشمال بعض المسؤولين العرب الى مكتب الارتباط، فحضر القائد امين عز الدين ويونس نفاع وجورج معمر، وسلمهم الميجور بيانا حول رغبة الجيش البريطاني في عدم زج جنوده او البوليس في الاصطدامات الدائرة بأي حال من الاحوال، وكل ما يهم الجيش هو تأمين الطريق والاماكن الضرورية لجلاء الجيش البريطاني عن فلسطين خلال الاشهر الثلاثة القادمة عن طريق مرفأ حيفا. وفي الوقت نفسه ابلغ القائد البريطاني الوفد بأن عشرة آلاف مسلح يهودي قد دخلوا المدينة يوم امس.

وانتهى هذا اللقاء الذي سبقه بيوم واحد تحلي الانكليز عن جميع المراكز التي كانت تحت سيطرتهم، وقد غادر قائد الحامية امين عز الدين المدينة لاحضار نجدة بنفسه. (٢٣٨)

في منتصف ليلة الواحد والعشرين من نيسان (ابريل) ابتدأ اليهود بهجوم مدفعي قوي مركز، واستنجدت حيفا بالقرى المجاورة، فجاءها في الصباح الباكر ثلاثمائة مسلح من قرية الطيرة المجاورة، إلا ان الجيش البريطاني منعهم من دخول المدينة. (٢٣٩)

لم يبق من حل ازاء الهجوم الضاري سوى الالتجاء الى الجيش البريطاني للتدخل، فذهب وفد من رجال المدينة لمقابلة المسؤولين الانكليز، وطلبوا من القائد الميجور جنرال ستوكوول ان يستعمل نفوذه لوقف الهجوم اليهودي، فأجاب: «انه غير مستعد للاصطدام بأحد الفريقين المتحاربين وانه لن يسمح للقوى العربية المسلحة بدخول المدينة لمساعدة السكان العرب، وانه مستعد فقط للقيام بالتوسط للصالح اذا قبل العرب مبدئيا بشروط الهدنة.» ولما اطلع الوفد على شروط الهدنة وجد انها تقضي بالاستسلام النهائي والاعتراف الضمني برئيس البلدية اليهودي حاكما على المدينة، والوعد بأن يصبح العربي مواطنا مساويا للمواطن اليهودي*. ورفض العرب المجتمعون- وهم فريد السعد وفكتور خياط وجورج معمر وانيس نصر والياس كوسا- هذه الشروط مطالبين بتعديلها. (٢٤٠)

اجتمع العرب بعد ذلك في دار البلدية مع الجانبين اليهودي والانكليزي للبحث في التعديل،

(٢٣٧) هاشم السبع، ذكريات صحفي مضطهد (القدس: مطبعة دير الروم الأرثوذكس، ١٩٥١)، الجزء الأول، ص ٥٤ - ٥٥.

(٢٣٨) محمد نمر الخطيب، من أثر النكبة، ص ٢٦٢ - ٢٦٥.

(٢٣٩) المصدر نفسه، ص ٢٦٦.

* راجع الوثيقة رقم (٦٧)، «شروط الهدنة التي رفضها عرب حيفا - ١٩٤٨».

(٢٤٠) محمد نمر الخطيب، من أثر النكبة، ص ٢٦٧ - ٢٦٩.